هل مصطلحي "مسيحي" و"أرثوذكسي" دقيقين في عصرنا الحالي؟ *

رئيس الأساقفة أفيركي (†١٩٧٦)

مطران سيراكيوز ودير الثالوث الأقدس

(الكنيسة الروسية في المهجر)

وُلد رئيس الأساقفة أفيركي، وهو في العالم ألكسندر بافلوفيتش تاشيف، في ١٩ تشرين الأول ١٩٠٦ في كازان في روسيا لعائلة تقية ونبيلة حيث كان والده موظفاً حكومياً مرموقاً.

غادرت أسرته مجتمعة من روسيا في عام ١٩٢٠ لتستقر في مدينة فارنا في بلغاريا، حيث أنهى فيها ألكسندر دراسته الثانوية. وفي عام ١٩٢٥، التقى ألكسندر برئيس الأساقفة ثيوفان بولتافا الناسك البارز (†١٩٤٠، وهو أيضاً لاجىء روسي أتى مؤخراً من يوغوسلافيا). أسفر هذا اللقاء والرابط الروحي الذي تشكّل مع رئيس الأساقفة عن اتخاذ ألكسندر قراره بأن ينخرط في الحياة الرهبانية.

بناءً على طلب الشيخ رئيس الأساقفة ثيوفان، والذي تجدر الإشارة إلى كونه أستاذاً بارزاً في الاهوت في أكاديمية سان بطرسبورغ اللاهوتية، التحق ثيوفان بكلية اللاهوت في جامعة صوفيا وتخرج منها بمرتبة "إمتياز" (Magna Cum Laude) عام ١٩٣٠.

قرر ألكسندر بعد يقينه للصعوبات التي كان يواجهها الأرثوذكس في كارباثو الروسية (موقعها ما يدعى بسلوفاكيا حالياً – المترجم) أن يعمل هناك ويساعدهم ليبقوا أوفياء للأرثوذكسية ومواجهة الدعاية الباباوية.

سِيم راهباً في ١٧ أيار ١٩٣١ في دير القديس نيقولاوس في قرية إيزا متخذاً إسم "أفيركي"، وفي اليوم التالي تمت سيامته شماساً إنجيلياً. في عيد البشارة من العام التالي، سيم كاهناً رهبانياً في دير ديفتشي، تشيرلينيف.

تم نقله إلى دير القديس نيقولاوس ليتمكن من خدمة الرعايا في نانكوف وبورنافا، وتم تعيينه في أيلول من العام ذاته في رعية أوزهورود. وفي عام ١٩٣٨، تم نقله إلى الرعية في موكاسيفو.

في عام ١٩٤٠ وإثر احتلال المجريين لكارباثو الروسية، ذهب إلى بلغراد حيث عمل بشكل مكثف جداً وخصوصاً في مجال التعليم، وذلك تحت رعاية المتروبوليت أناستاسي (†١٩٦٥) رئيس أساقفة الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في المهجر والتي كان لا يزال مقرها هناك.

في العام ١٩٤٥، استقر في ميونخ، وهي المقر المؤقت الجديد للكنيسة الروسية في المهجر، وبقي فيها حتى عام ١٩٥١، يعمل على تنظيم الأعمال الخيرية.

بعدها، وبناءً على دعوة من رئيس الأساقفة فيتالي مطران جوردانفيل، ذهب إلى أمريكا من أجل تعليم الليتورجيا والوعظ والعهد الجديد في معهد الثالوث الأقدس الأرثوذكسي المنشأ حديثاً والواقع في الدير الذي يحمل الاسم ذاته. وفي ١٧ شباط ١٩٥٢، أصبح عميداً للمعهد.

في يوم عيد الروح القدس عام ١٩٥٣، تم تنصيبه أسقفاً على سيراكيوز في الولايات المتحدة الأمريكية. وفي أيار ١٩٦٠ وبعد رقاد رئيس الأساقفة المطران فيتالي، تم انتخابه رئيساً للدير في جوردانفيل، وبقي في هذا المنصب إلى يوم رقاده. في عام ١٩٦١، تمت ترقيته إلى رتبة رئيس أساقفة. رقد في الرب في ٣١ آذار ١٩٧٦.

كان تقشفياً، جليلاً، واعظاً ممتازاً للكلمة الإلهية، كاتب لا يكل ولا يمل (كما تشهد له أعماله الوفيرة في تفسير العهد الجديد وخلفياته وفي الوعظ، وأيضاً المجموعات ذات المجلدات المتعددة من مقالاته وعظاته وخطاباته ودراساته الخاصة إلخ)، راعياً لا يُقهر، شيخاً كبيراً للرهبان، معلماً ومربياً فاضلاً لجيل من الإكليريكيين، ووعاءً لمواهب المعزي القدوس.

واهتم على نحو خاص، بالقول والفعل، بنقاء واستقامة الإيمان القويم أي الإيمان الأرثوذكسي المقدس، متابعاً بأسى ومنددا بجرأة الإرتداد المتصاعد لأولئك الذين يدعون أنفسهم بالأرثوذكس والذين وقعوا في مخالب الهرطقة المسكونية وأصبحوا متماشين مع روح الإرتداد الذي يتميز به العالم المعاصر، متحولين بشكل مطرد بعيداً عن الأرثوذكسية.

كما سيتبين للقارىء، هذا النص هو اعتراف بالإيمان، إعترافاً يتميز بصراحة لغته — لغة الحقيقة. وتوقيته المناسب يبدو جلياً بالرغم من أنه كُتب منذ خمسة عشرة عاماً (أربعون عاماً من تاريخ الترجمة العربية–المنقّح)، وهذا يُظهر الحدس النبوي للرجل القديس هذا وغيرته المقدسة، وهي سمات تبدو جلية في كتاباته الأخرى المستنيرة إلهياً. بنعمة الله، سوف نقوم بنشر بعض من هذه الأعمال في الوقت المناسب.

* * *

لقد كانت مفاهيم ومصطلحات "مسيحي" و"أرثوذكسي" حتى وقت قريب (١٩٧٥) ذات معنى و لا لبس فيها.

أمّا الآن، فنحن نعيش في أوقات عصيبة جداً ومليئة بالباطل والخداع حيث لم تعد هذه المفاهيم والمصطلحات تعبر عن جوهرها عند استخدامها بدون إيضاحات إضافية. إنها لا تعكس جوهر الأشياء بل غدت أكثر بقليل من تسميات مضللة.

فالعديد من الجمعيات والمنظمات تدعو الآن نفسها بـ "المسيحية" على الرغم من أنها لا تمت للمسيحية بصلة وإنها إلى حد بعيد ترفض العقيدة الأساسية للمسيحية – ألوهية ربنا يسوع المسيح، كما تفعل العديد من المذاهب الحديثة التي تبدو لهم ذات الروح المسيحية الأصيلة، النابعة طبيعياً ومنطقياً من تعليم الأناجيل، بمثابة غريبة بشكل عام.

وفي الآونة الأخيرة، توقف أيضاً وإلى حد كبير المصطلح "أرثوذكسي" عن التعبير عن ما يجب أن يكون عليه، وذلك لأن حتى أولئك الذين في الواقع قد ارتدوا عن الأرثوذكسية الأصيلة وباتوا خونة للإيمان الأرثوذكسي والكنيسة يستمرون بتسمية أنفسهم بـ "الأرثوذكس".

هكذا هم جميع المبتكرين الرافضين لروح الأرثوذكسية الأصيلة، جميع أولئك الذين انزلقوا على طريق العلاقات المشتركة مع أعداء الأرثوذكسية، الذين ينشطون بالدعاية للصلاة المشتركة وحتى الشركة الليتورجية مع أولئك الذين لا ينتمون للكنيسة الأرثوذكسية المقدسة.

هكذا هم جميع "الإصلاحيين"[١] و"الإصلاحيين الجدد" المعاصرين، "الأرثوذكسيين الجدد" (كما البعض منهم ينعت نفسه علناً) الذين يثيرون الضجة حول أهمية وضرورة "تجديد

الكنيسة الأرثوذكسية"، حول نوع من "الإصلاح في الأرثوذكسية" التي يزعمون أنها أصبحت "بالية العادات" و"تحتضر".

يستفيضون في الكلام عن هذه الأمور عوضاً عن تركيز انتباههم الورع على التجديد الجوهري الحقيقي لنفوسهم والإصلاح الجذري لطبيعتهم الخاطئة بما تحمله من أهواء وشهوات.

ينادون بإصرار بالوحدة مع الهراطقة، مع غير الأرثوذكس، لا بل حتى مع غير المسيحيين. يدعون لـ "إتحاد الكل" لكن بدون الوحدة المتسقة بالروح والحق التي وحدها تجعل هكذا إتحاد ممكناً.

على سبيل المثال، هكذا هم في أيامنا هذه بطاركة القسطنطينية المسكونيين الذين اعترفوا بـ"الكنيسة الحية" في روسيا السوفياتية على أنها كنيسة شرعية والآن يعترفون ببابا روما على أنه "رأس الكنيسة المسيحية جمعاء"، لا بل أنهم يسمحون للّاتين البابويين بحق الشركة (المناولة) المقدسة بدون أن يكونوا على اتحاد أولاً بالكنيسة الأرثوذكسية المقدسة.

على نحو هؤلاء يكون كل أولئك الذين يشتركون بشكل فعّال في ما يسمى الحركة المسكونية التي تكافح بشكل فاضح من أجل خلق نوعاً ما من كنيسة مزيفة جديدة منبثقة من جميع المذاهب الموجودة حالياً.

هكذا أيضاً هم أولئك الآخرين الكثر الذين هم غير أوفياء تماماً لربنا ومخلصنا ولكنيسته المقدسة، بل يخدمون أعدائه الشرساء أو يعملون على إرضائهم بطريقة أو بأخرى بمساعدتهم على إدراك أهدافهم المعادية للمسيحية في عالم ابتعد عن الله.

من سيجرؤ على منعِنا من حقنا القانوني بعدم الاعتراف بأولئك الناس على أنهم أرثوذكس، بالرغم من إصرارهم ربما على استخدام ذلك الاسم وحمل المناصب الرفيعة والألقاب المتنوعة.

نحن نعلم من تاريخ الكنيسة بأنه كان يوجد عدد غير قليل من الهراطقة وحتى كبار المهرطقين ذوي المراكز المرموقة الذين تمت إدانتهم بصورة رسمية من قبل الكنيسة الجامعة وتم خلعهم من مناصبهم.

لكن ماذا نرى اليوم؟

للأسف، إنه عصر التنازلات الغير المحدودة والتعاون الخبيث، حين نجد أن حتى الأعمال والبيانات الهرطوقية الأكثر فضيحة بالكاد تزعج أي شخص.

قليلون جداً هم الذين يتفاعلون كما ينبغي مع هذا الإرتداد الجلي عن الأرثوذكسية. أما في ما يختص بإدانة هؤلاء الهراطقة والمرتدين الجدد، فلا جدوى حتى من مجرد التفكير بالأمر.

اليوم كل شيء بات مسموحاً للجميع ولا شيء محرّم على أي كان، باستثناء تلك الحالات حين يتأذى ويُهان أحدهم ويُساء له بشكل شخصي نتيجة لفت الإنتباه لحماقته.

أواه، في مثل هذه الحالات فإن الأمر لا يغتفر! عندها تظهر التهديدات، مرتكزة على تلك القوانين المنسية التي هي على خلاف ذلك "عفا عليها الزمن، قديمة وغير مقبولة" في عصرنا المتقدم والمتطور!

هذا هو نوع الانحلال الأخلاقي والشذوذ الروحي الحقيقي الذي يواجهنا.

فالحقيقة يتم تجاهلها بسهولة ويُستهزأ بها بكل وقاحة، فيما الشر، وبذات السهولة، يحتفل بنصره المظفر ويسخر بشماتة بالحقيقة التي أسقطها وداس عليها.

فهل يمكن توفيق ضمير الإنسان مع هذا الوضع المعاصر؟ هل يمكن للمرء أن يغلق عينيه أمام كل هذه الأكاذيب والأباطيل وأن يتصرف بهدوء وكأنه لم يعاين أي خطأ؟

فقط الأشخاص الذين احترقت ضمائرهم أو فُقدت بشكل كامل يمكنهم فعل ذلك!

لهذا السبب إنه لأكثر من غريب أن نسمع البعض من الذين يتخيلون أنفسهم أرثوذكسيين يدعون الكنيسة الروسية خارج روسيا بـ "المؤمن القديم"، "منشقة"، "رجعية"، و"متخلفة (ظلامية)" إلخ، فقط لأننا نرفض السير في خطى هذه الأزمنة ولا نتجرأ أن نرتد عن أي شيء من إنجيل المسيح والتعليم الأصيل للكنيسة المقدسة، وبالتالي نعتبره التزاماً من الضمير أن نُدين هذا الشر الواضح والجلي لهذه الحياة المعاصرة، والذي قد سبق وتوغل في الكنيسة.

في الحقيقة، لسنا نحن المنشقين بل جميع الذين يتبعون روح هذه الأزمنة والذين بفعلهم هذا يقطعون أنفسهم عن الكنيسة الواحدة المقدسة الجامعة الرسولية، مرتدين عن الإيمان الرسولي، عن إيمان الآباء، عن الإيمان الأرثوذكسي الذي أنشأ العالم كله.

من الواضح أن هؤلاء الناس يندفعون إلى حافة الإرتداد، إلى هاوية الهلاك، سوياً مع العالم المعاصر بأكمله، دافنين أنفسهم بارتدادهم هذا بعيداً عن الله المعطي الحياة.

هل تسمعون كلمات الرسول الملهمة إلهياً أيها المستحدثون، الذين تحاولون تشويه إنجيل المسيح وغدوتم بجبور وحماسة "تشابهون هذا العالم"، الشرير والمغري كما هو؟

نحن نقبل بكل حبور اتهامكم بأننا "مؤمنون القدماء"، معتبرين إياه شرفاً لتمسكنا بالتقليد؛ ولكن كيف يتماشى ضميركم المسيحي مع ابتكاراتكم التي تنقلب بشكل أساسي على الإيمان الحقيقي العريق وكنيسة المسيح الراسخة والغير متبدلة.

ألم يكن الرسول هو الذي حذّر المسيحيين قائلاً: "ولا تَتَشَبَّهُوا بِهَذَا الدَّهْرِ بَلْ تَحَوَّلُوا إِلَى صُورَةٍ أُخْرَى بِتَجْدِيدِ عُقُولِكُمْ لتَعْرِفُوا مَشيئَةَ الله: مَا هُوَ صَالِحٌ وَ مَا هُوَ مَرْضِيٌّ وَ مَا هُوَ كَامِلٌ." (رومية ١٢:٢).[٢]

نحن "مؤمنون القدماء،" لكننا لسنا منشقين، لأننا لم نقطع أنفسنا أبداً عن كنيسة المسيح الأصيلة.

نحن في اتحاد مع رأسنا المسيح المخلص، ومع تلاميذه ورسله القديسين، مع الآباء الرسوليين، مع معلمي الكنيسة والآباء العظام، ومع الكواكب والأعمدة اللامعة لإيمان وتقوى وطن أجدادنا، روسيا المقدسة.

أما أنتم فمتحدون مع نوع ما من مُبتكِرين نصبوا أنفسهم معلِّمين، الذين تبشرون بهم في كل مكان بشكل غير قانوني وبكل تعنت، مزدرين وفي بعض الأحيان متجرئين على نقد الكواكب اللامعة الأصيلة لكنيستنا المقدسة الذين أرْضَوا الله وتمجدوا بالكثير من العجائب وجهادات التقوى النسكية، وذلك على مدى ألفي سنة من تاريخ الكنيسة.

ففي هذه الحالة، يا ترى من منّا هو المنشق؟

بالتأكيد ليس أولئك السالكين في روح الأرثوذكسية التقليدية، بل بالأحرى أولئك الذين ارتدوا عن الإيمان الحقيقي بالمسيح ورفضوا الروح الأصيلة للتقوى المسيحية، بالرغم من أن جميع

البطاركة المعاصرين الذين أبدلوا أرثوذكسيتنا الآبائية العريقة قد يقفون إلى جانب الطرف الأخير، بالإضافة إلى أكثرية ما يسمى بمسيحيين معاصرين.

في الواقع، لم يعد المسيح المخلص بالخلاص الأبدي للأكثرية، ولكن، على العكس تماما، لقد وعد به "قطيعه الصغير" الذي سيبقى أميناً له حتى النهاية، في يوم مجيئه الثاني المجيد والرهيب عندما يأتي "ليدين الأحياء والأموات".

هو قال "لَا تَخَفْ، أَيُّهَا القَطِيعُ الصَّغِيرُ"، راسماً الصورة المخيفة لآخر الأزمنة حيث سيحصل الإرتداد عن الله وإضطهاد الإيمان أمام أعيننا، "لأَنَّ أَبَاكُمْ ارْتَضَى أَنْ يُعْطِيَكُمُ الْمَلَكُوتَ."[٣]

هذا هو السبب الذي يجعل كل ما ذكرناه سابقاً يدفعنا إلى إعادة النظر في المصطلحات التي تم قبولها حتى يومنا هذا.

لا يكفي في عصرنا أن نقول فقط "مسيحي" – اليوم لا بد من تحديد ذلك قائلين "مسيحي أصيل". مثيل ذلك، لا يكفي أن نقول "أرثوذكسي" – لقد بات ضرورياً التأكيد أننا لسنا نشير الى "أرثوذكسي" عصراني مبتكر، بل إلى أرثوذكسي أصيل.

لقد سبق لجميع الغيورين على الإيمان الحق الأصيلين والخادمين المسيح المخلص وحده وبدأوا القيام بذلك، كِلا أولئك في وطننا الأم، الذين اسْتُعْبِدوا من أعداء الله الشَّرِسين، حيث يهلع الغيورون إلى الكهوف على غرار المسيحيين القدماء، وكذلك في اليونان، الأمة الشقيقة، حيث "ذوي التقويم القديم" ليس فقط يرفضون القبول بالتقويم الجديد بل أيضاً يرفضون جميع الابتكارات من أي نوع كانت. ولديهم تكريم خاص لذلك القديس، بطل الأرثوذكسية

المقدسة، مرقس ميتروبوليت إفسس الذي بفضل صموده وثباته سقط إتحاد فلورنسا العاق مع روما البابوية عام ١٤٣٩.

الجدير بالذكر أن كُل من كنيسة الكهوف في الاتحاد السوفييتي السابق التي يُسمّى أفرادها بال "تيخونيين" وذوي التقويم القديم في اليونان، والذي من الصعب أن يوجد أي اتصال بينهما، قد بدأوا بتسمية أنفسهم "المسيحيون الأرثوذكس الأصيلون".

في إطار دفاعنا عن الإيمان والكنيسة الأصيلين، يتوجّب علينا أن نبتعد فقط عن كل ما هو شخصي – الكبرياء وتعظيم الذات–، الذان حتماً يؤديان إلى أخطاء جديدة، وفي نهاية المطاف حتى إلى السقوط؛ وقد سبق لنا أن شهدنا هذا الأمر في مسائل عِدّة.

ليس علينا تعظيم ذواتنا بل الإيمان النقي والطاهر بالمسيح. التعصب أمر غير مقبول هنا، لأنه قادر على إعماء الأعين الروحية لأولئك "الغيورين عن غير معرفة." فبدلاً عن تثبيت المرء في الإيمان، هذا التعصب الأعمى قد يقوده أحياناً إلى الإبتعاد عنه.

من المهم أن نعرف ونتذكر بأن المسيحي الأرثوذكسي الأصيل ليس هو ذلك الشخص الذي يكتفي بالقبول الرسمي للعقائد الأرثوذكسية، لكنه، على غرار التعليم الجميل للمطران الروسي العظيم القديس تيخون زادونسكي، هو بالأحرى شخص يفكر بأسلوب أرثوذكسي ويشعر على نحو أرثوذكسي ويحيا بنهج أرثوذكسي ويجسد روح الأرثوذكسية في حياته.

إن روح النسك وإنكار العالم هذه ، التي ترِد بوضوح في كلمة الله وتعليم الآباء القديسيين، يتم إنكارها بحدة ووقاحة من قبل العصرانيين "الأرثوذكس الجدد"، الذين يريدون في كل شيء

أن يتماشوا مع روح هذا العالم الغارق بالشر، والذي أميره، كما جاء في كلمات الرب نفسه، هو ليس سوى الشيطان.[٤]

ومن ثم، ليس هو الله من يرغبون إرضاءه، لكن الشيطان "أمير هذا العالم"؛ وبالتالي هم كفُّوا عن كونهم مسيحيين أرثوذكسيين أصيلين، حتى ولو كانوا يدعون أنفسهم بذلك.

إذا تأملنا بكل هذا بشكل جدي وعميق، سنرى عندها أنها هذه هي الحالة تماماً وأن الحداثة، مع ابتكاراتها، تقودنا بعيداً عن المسيح وكنيسته الأصيلة.

لنرتعد من المدى السريع الذي بلغه الإرتداد، بالرغم من أن العصرانيين لا يرونه أو لا يشعرون به، بقدر ما هم أنفسهم يساهمون بدور فعال فيه.

ولذلك دعونا لا نخشى البقاء في عداد الأقلية، وبعيداً عن كل الألقاب والرتب العالية الطنانة. دعونا نتذكر دائما أنه حتى قيافا كان كاهناً علياً للإله الحقيقي، وإلى أي أعماق غرق – إلى خطيئة قتل الله الفظيعة!

فيما نحن نعيش في هذا العالم المرتد عن الله، دعونا لا نلهث وراء مجد إنساني مزيف وشعبية رخيصة، اللواتي لن تخلصنا، ولكن فقط لأن ننتمي لـ "القطيع الصغير" الخاص بالمسيح.

دعونا نكون مسيحيين أرثوذكسيين أصيلين، وليس مستحدثين!

الملاحظات:

* المصدر: *Ορθοδοξος Ενστασις χαι Μαρτυρια*، عدد ١٨-٢١ (كانون الثاني – كانون الأول ١٩٩٠) ص. ٢٠٤-٢٠٩. نشرت الترجمة الإنكليزية عن الأصل الروسي في مجلة Orthodox Life، مجلد XXV، عدد ٣ (أيار – حزيران ١٩٧٥)، ص. ٤ – ٨.

[1] هو الإسم المعطى لأعضاء حركة "الكنيسة الحية"، الذين كان البولشيفيون (أي الشيوعيون الثوريون في روسيا) أوصياء عليهم خلال عقد ١٩٢٠ – المترجم.

[2] رومية ٢:١٢.

[3] القديس لوقا ٣٢:١٢.

[4] القديس يوحنا ٣١:١٢.